أسبقية البصرة لاحتضان النحو العربي:

أولا: العامل السياسي:

كانت البصرة عثمانية أموية وكانت الكوفة علوية عباسية لقد سكن الإمام علي(كرم الله وجهه) الكوفة واتخذها مقرا لخلافته إذ كان أهل الكوفة مطيعين له فدعوه إليهم في الوقت الذي شق فيه أهل البصرة عليه عصا الطاعة ثم جاءت السيدة عائشة (ت 58هـ) البصرة ومعها جيش طلحة والزبير مطالبين بثأر عثمان وقد كانت موقعة الجمل بين عائشة وعلي فكان ما كان ومن ثم تمسكت كل من البلدتين بما تدين له فاستمرت البصرة هاشمية عثمانية والكوفة قرشية علوية ولما كانت مسألة التحكيم وكان الغانم فيها الأمويين كان طبيعيا أن يكون الاستقرار والطمأنينة والهدوء للبصريين أنصارهم في الوقت الذي كانت فيه قلوب الكوفيين تغلي على البصريين وتضمر لهم الكراهية والبغضاء يقول الأعشى (ت 83م) على لسان الكوفيين : فإذا فاخرتمونا فاذكروا ما فعلنا بكم يوم الجمل .

إلا أن هذا لم يدم طويلا فقد تغير الحال وسقطت الدولة الأموية وجاءت الدولة العباسية وكان مبدأ ظهورها في الكوفة إذ تمت البيعة لأبي العباس السفاح (ت 136م) أول خلفائها بدعوته لآل البيت فناصره الكوفيين فحفظ العباسيون لهم هذا الصنيع فعطفوا عليهم وكافئوهم فانقلب ذل الكوفيين في عصر الأمويين إلى عز في عصر العباسيين وأفل نجم البصرة بعد أن كان ساطعا ولئن تقاعست البصرة في عهد العباسيين فقد فازت بقصب السبق في عهد الأمويين على غيرها فتمكنت من حمل لواء رئاسة العربية ولاسيما النحو.

ثانيا: الموقع الجغرافي:

كان لموقع البصرة الجغرافي الأثر البارز في سبقها للاشتغال بالنحو , فالبصرة تقع على طرف البادية مما يلي العراق , فهي أقرب مدن العراق إلى العرب الأقحاح الذين لم تلوث لغتهم بعامية الأمصار فعلى مقربة منها بوادي نجد غربا والبحرين جنوبا

والأعراب يفدون إليها منهما ومن داخل البصرة وليست كذلك الكوفة وبغداد فمكن هذا أهل البصرة أن يأخذوا عن العرب دون أن يتكلفوا مشاق السفر.

ثالثا: قرب سوق المربد من البصرة :

كان للعامل الثقافي أيضا أثر واضح في سبق البصرة للاشتغال بالنحو إذ كانت تنعقد فيها مجالس للعلم والمناظرة ويفد إليها الشعراء ورواتهم فهي تشبه سوق عكاظ في الجاهلية ينزل العلماء والأدباء والأشراف للمذاكرة والرواية والوقوف على ملح الأخبار وكان اللغويون يأخذون عن أهله ويدونون ما يسمعون فيأخذ عنهم النحويون ما يصحح قواعدهم ولم تكن سوق الكناسة بالكوفة إذ أن ساكنيها من الأعراب أقل عددا وفصاحة ممن كان بالبصرة وإن كان منهم لفيف من بني أسد وغيرهم إلا أن أغلبهم يمانيون وأهل اليمن قد فسدت لغتهم لمجاورتهم الحبشة واتصالهم بالهند ومخالطتهم التجار الذي يفدون إليهم من مختلف الأمصار .

مصادر الدراسة ومنهجها عند البصريين:

منهج الدراسة عند البصريين

إن البصريين كانوا أكثر حرية و أقوى عقلا و طريقتهم أكثر تنظيما و خطتهم هي الاعتماد على الشواهد الموثوق بها، الكثيرة الدوران على السنة العرب التي تصلح للثقة فيها أن تكون قاعدة تتبع. ولن يكون ذلك إلا إذا وردت في كتاب الله الكريم أو نطق بها العرب الخلص الذين اعترف لهم بالفصاحة لبعدهم عن مطنة الخطاء، كالاتصال بالأعاجم سواء بالرحلة أو الجوار، أو لرسوخ قدمهم في اللغة و تبصرهم بها، و اطلاعهم عليها ككبار العلماء و الأدباء، هؤلاء الذين يمكن أن توضع أقوالهم موضع الاعتبار. لذلك لم يكن بدعا أن ترى السيوطي يقول، اتفقوا على أن البصريين اصح قياسا، لأنهم لا يلتفتون إلى كل مسموع و لا يقيسون على الشاذ. في الحقيقة، نحاة البصرة تأثروا بالبيئة البصرية و نهج المعتزلة و تأثروا بهم في

الاعتداد بالعقل و طرح كل ما يتعارض معه، فأهملوا الشواذ في اللغة، لهذا سمى نحاة البصرة أهل المنطق. (2)ومن الأمور التي تراعيها مدرسة البصرة في بحثها الآتي:

أولا : المادة العلمية :

اعتمد البصريون في مادة منهجهم العلمي على الأفصح من الألفاظ والأسهل منها على اللسان ولدلك اختاروا من بين القبائل التي اعتمدوا عليها القبائل المقطوع بعراقتها في العربية , والمصونة فطرتهم من رطانة الحضارة الأجنبية فاختاروا من العرب قيسا وتميما وأسدا فأخذوا أكثر قواعدهم من هؤلاء في اللغة والإعراب والتصريف ثم اخذوا من هديل وبعض كنانة وبعض الطائيين , ولم يأخذوا عن حضري ولا من سكان البراري ممن كان يجاور الأمم الأخرى ومن هنا رفضوا الأخذ من لخم وجذام لمجاورتهم أهل مصر , ولم يأخذوا من قضاعة ولا من غسان ولا من إياد لمجاورتهم أهل الشام , ولا من النمر لمجاورتهم اليونان , ولا من بكر لمجاورتهم النبط والفرس .

ثانيا: اختيار سلامة لغة المأخوذ عنهم :

كان البصريون يختبرون سلامة لغة من يشكون في أمره , ممن سبق من القبائل الفصيحة ويروي ابن جني في ذلك فيقول : ومن ذلك ما يحكي أن أبا عمرو بن العلاء استضعف فصاحة أعرابي يسمى : أبا خيرة لما سأله فقال: كيف تقول : استأصل الله عرقاتهن ؟ ففتح أبو خيرة التاء من عرقاتهن فقال له أبو عمرو : هيهات أبا خيرة لأن جلدك وهذا يعني أن اللحن أو ما يشبه ذلك رى إلى الأعراب , لأن أبا عمرو كان قد سمع أبا خيرة يروي الشاهد بالكسر , فلم يتردد في مؤاخذة أبي خيرة , وهو أحد الأعراب الذين أخذت عنهم اللغة , باللحن وذلك لتقدمه في السن وطول مخالطته لأهل الحواضر.

ثالثا: التأكد من الثقات في صحة المروي:

كان البصريون يتحرون عن الرواة فلا يأخذون إلا برواية الثقات الذين سمعوا اللغة من الفصحاء عن طريق الحفظة والأثبات الذين بذلوا الجهد في نقل المرويات عن قائليها منسوبة إليهم فقد أبوا أن يستدلوا بشاهد لم يعرف قائله .

رابعا: كمية المقيس عليه المنقول عند العرب:

اشترط البصريون فيما ينقل عن العرب الكثرة الكاثرة فيقعدون على الأكثر وإلا فعلى الكثير, وإلا فعلى القليل , وإلا فعلى الأقل , وإلا فعلى النادر ,وإلا قاسوا الأشباه على الأشباه , والنظائر على النظائر إذا لم يتناقص مع الوارد ولدا اعتبر سيبويه قياس فعولة بفعيلة في النسب إليها بحذف حرف المد وقلب الضمة فتحة وإن لم يرد منها إلا شنيء في النسب إلى شنوءه , لأنه لم يرد ما يخالفها فإذا ما خالف الوارد ما سبق من قياس أولوه أو اعتبروه شاذا يحفظ ولا يقاس عليه وقد ينكرونه أو يقولون إنه ضرورة .

مصادر الدراسة عند البصريين:

اعتمد البصريون في دراستهم طائفة من المصادر وهي:

1-القرآن الكريم

أقام البصريون نحوهم على القرآن الكريم حيث كانوا يستشهدون في كثير من المسائل بآيات من القرآن الكريم , فكان القرآن أحد مصادرهم المهمة والأساسية.

2-الشعر العربي:

اعتمد البصريون الشعر العربي أصلا من أصولهم في الاستشهاد على صحة المسألة , كما اعتمدوا على الشعر الإسلامي فاستشهدوا في نحوهم بشعر الفرزدق وجرير وأراجيز العجاج ورؤبة وأبي النجم وفي بعض الأحيان يتجاوزون الحقبة التي وقفوا عندها في استشهادهم فقد جاء الاقتراح للسيوطي فيما رواه ثعلب عن الأصمعي : أن إبراهيم بن هرمة أخر من يحتج به , ومن المعلوم أن ابن هرمة هذا قد ولد سنة تسعين للهجرة وعمر طويلا حتى تجاوز منتصف القرن الثاني . كما أن أوائل البصريين قد اطمأنوا إلى سلامة لغة جماعة من العلماء ممن ينتمون إلى أصول غير عربية , فقد جاء أبا عمرو بن العلاء قد قال في الحسن البصري :" ما رأيت أفصح من الحسن البصري والحجاج بن يوسف الثقفي , فقيل له : فأيهما أفصح فقال: الحسن " وقد أشار الجاحظ إلى أن هدا , وذهب إلى أن هؤلاء الفصحاء الذين ينتمون إلى أصل غير عربي أبو علي الأسواري , وعمرو بن فائد الذي جلس يعظ في مسجده نحو ست وثلاثين سنة وقد كان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب ويحتج به .إذن يمكننا القول أن المادة التي احتج بها البصريون في وضع أصول العربية هي : لغة التنزيل والشعر العربي القديم جاهليه وإسلاميه وما أثر من الأمثال الجاهلية.

من أشهر علماء مدرسة البصرة:

1-**سيبويه: هو عمرو بن عثمان بن قنبر , من موالي بني الحارث ابن كعب , فارسي الأصل والمولد , بصري النشأة عاش عمرا قصيرا , وتوفي(180 هـ)على أقرب الروايات , ومع ذلك فقد قدم للعربية أهم كتاب في تاريخها الطويل .و(الكتاب) هكذا بدون عنوان عرف بأنه (قرآن النحو) أي هو (الكتاب) الذي اتبعه النحويون والحق أن التغيير الذي طرأ على النحو كما قدمه سيبويه ليس تغييرا في الجوهر.**

يقول القفطي في نزهة الألبا: يقال أن أبا الحسن الأخفش لما رأى أن كتاب سيبويه لا نظير له في حسنه وصحته ، وانه جامع لأصول النحو وفروعه استحسنه كل الإحسان فيقال :إن أبا عمر الجرمي وأبا عثمان المازني وكانا رفيقين توهما أ أبا الحسن الخفش قد هم أن يدعي لنفسه فقال أحدهما كيف السبيل إلى إظهار الكتاب ومنع الأخفش من ادعائه ؟ فقال له أن نقرأه عليه فإذا قرأناه عليه أظهرناه وأشعنا أنه لسيبويهفلا يمكن أن يدعيه .

وكان أبو عمر الجرمي موسرا وأبوعثمان المازني معسرا فارغب أبو عمر الجرمي أبا لحسن الأخفش وبذل له شيئا من المال على أن يقرأه وأبو عثمان المازني الكتاب فاجاب إلى ذلك. وشرعا في القراءة عليه وأخذ الكتاب عنه وأظهر أنه لسيبويه وأشاعا ذلك فلم يمكن أبو الحسن أن يدعي الكتاب ، فكانا السبب في إظهار أنه لسيبويه ولم يسند كتاب سيبويه إليه الا بطريق الأخفش فإن كل الطرق مستند فيها إليه .

ويقول الاستاذ علي النجدي : وكأن الله في عدله وحكمته صرف سيبويه عن تسمية كتابه وندب العلماء لتسميته عنه لتكون شهادة فضل يؤديها الحاسد الشانيء كما يؤديها له الولي الحميم على سواء ويكون منها بعد مماته عزاء عن الهزيمة التي هزمها ببغداد أمام الكسائي والمعروف بالمناظرة على المسئلة الزنبورية، وسنأتي على تفصيله، ومن الواضح أن سيبويه لم يكن لف الفضل الأكبر في تأليف الكتاب بل أخذ معظمه عن أستاذه الخليل بن أحمد . فكلما قال سيبويه: (سألته) أو قال (قال) من غير أن يذكر قائله فهو الخليل بن أحمد .

وقد كان القدماء يضعون (الكتاب) في المحل الأول , فقد قال أبو عثمان المازني : (من أراد أن يعمل كتابا كبيرا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستح) .

وقال الجاحظ : (أردت الخروج إلى محمد بن عبد الملك وزير المعتصم ففكرت في شيء أهديه له , فلم أجد شيئا أشرف من كتاب سيبويه , فلما وصلت إليه قلت له : لم أجد شيئا أهديه لك مثل هذا الكتاب , وقد اشتريته من ميراث الفراء , فقال : والله ما

أهديت لي شيئا أحب إلي منه . وروي أن الجاحظ لما وصل إلى ابن الزيات بكتاب سيبويه أعلمه به قبل إحضاره فقال له ابن الزيات : أو ظننت أن خزانتنا خالية من هذا الكتاب ؟ فقال الجاحظ: ما ظننت ذلك , ولكنها بخط الفراء , ومقابلة الكسائي , وتهذيب عمرو بن بحر الجاحظ , يعني نفسه , فقال ابن الزيات: هذه أجل نسخة توجد وأعزها , فأحضرها إليه , فسر بها ووقعت منه أجمل موقع).

وقد توفر عدد كبير من العلماء القدامى على شرح (الكتاب) وتعليمه , أشهرهم أبو سعيد السيرافي , ثم المبرد وعلي بن سليمان الأخفش , والرماني , وابن السراج , والزمخشري , وغيرهم . ولقد نشر الكتاب لأول مرة المستشرق الفرنسي ديرنبور Derenbourg**في جزأين بباريس** 18 .(89,1881**ثم نشر الكتاب بعد ذلك في القاهرة في مطبعة بولاق في جزأين ، (**1318**هـ),**1316 **هـ وهي أحسن الطبعات المتوافرة ضبطا وذقه , وبهامشها نتف من شرح أبي سعيد السيرافي على الكتاب . وأخيرا قدم الأستاذ عبد السلام هارون نشرة جديدة للكتاب صدرت في خمسة أجزاء يحتوي الجزء الخامس منها على فهارس قيمة تعين الدارس على الرجوع إلى مبتغاه في شيء من اليسر.**